مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٣

الحياة الرهبانية في نهاية القرن الرابع الميلادي بمصر (١)

الجوانب الاجتماعية

ترجمة: بشارة طرابلسي

الحياة الرهبانية في نهاية القرن الرابع الميلادي بمصر* (١)

الجوانب الاجتماعية

ترجمة بشارة طرابلسي
beshara_tarabolsy@alexandriaschool.org

مقدمة المترجم

تُعتبر سير القديسين تطبيقاً معاشًا للإيمان المسيحي ووصايا الإنجيل. ولقد كانت المشكلة الدائمة هي أن القديسين من اتضاعهم لم يتركوا لنا سيّرًا أو أقوالاً مكتوبة، ولكن الله أبى أن يوضع السراج تحت مكيال، فأرسل لهم في كل زمان ومكان أناسًا متعطشين للبحث عن خلاص نفوسهم. هؤلاء في غيرة وشوق سجلوا لنا، بأمانة شديدة، كل ما رأوه وسمعوه عن حياة هذا القديس، وأخبار ذاك، وأقوال هؤلاء وأولئك. ونتج عن هذا إرث ضخم من سير وأقوال الآباء، تناقلته الأجيال في حرصٍ وتبجيلٍ، وظل هذا الإرث ينبوعًا ينهل منه كل ساعٍ لخلاص نفسه.

ومن ضمن هذا الإرث، كتاب "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* والذي يسجِّل رحلة سبعة رهبانٍ من فلسطين إلى مصر حوالي عام ٣٩٤م، حيث طافوا بالمتوحدين والتجمعات الرهبانيّة المنتشرة في مصر على ساحل البحر الأبيض، ونتريا والقلالي والإسقيط، وبابليون والفيوم ومصر الوسطى وحتى أسيوط.

والمقال الذي نحن بصدده هو الفصل الثاني من مقدمة كتاب "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* في طبعته الإنجليزية[1]، كتبته الراهبة

---

* أود أن أقدم الشكر لنيافة الأنبا مكاريوس الأسقف العام، والصديق العزيز الأخ وديع عوض الفرنسيسكاني اللذيْن أرشداني لهذا الكتاب الثمين وشجعاني على القيام بهذه الترجمة، كما أشكر الأخ وديع على مراجعته لهذه المقالة وملحوظاته القيمة. (المترجم).

[1] Norman Russel, *The lives of the Desert Fathers 'The Historia Monachorum in Aegypto'* – Introduction by Benedicta Ward SLG, Cisterican Publications CS34, 1981, pp. 12-19.

بنديكتا وارد *Sister Benedicta Ward SLG* [٢]، وهذه المقدمة لها أهمية كبيرة، حيث تحلّل فيها الأخت بنديكتا شكل الحياة الرهبانية في أزهى عصورها.

ولقد حاولت - قدر استطاعتي - توخّي الدقّة في الترجمة، ولكنني اُضطررت من حين لآخر أن أضيف بعض الكلمات ليستقيم المعنى، فقمتُ بوضعها بين قوسين مربعين [...]، أما الكلمات بين علامتي التنصيص "..." فهي تعبر عن اقتباسات من النص.

[٢] الأخت بنديكتا وارد تنتمي لأخوات محبة الله "Sisters of the Love of God "SLG، وهي أخوية أنجليكانية. الأخت بنديكتا تدرّس تاريخ الروحانية المسيحية المبكرة في كلية اللاهوت بأكسفورد، ولها العديد من المؤلفات في هذا المجال أشهرها "أقوال آباء البريّة". (المترجم).

"هؤلاء الذين بواسطتهم حُفظ العالم"

البُعد الأول للحياة في الصحراء، الذي يمكن ملاحظته من كتاب "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*، هو ذلك البعد الخارج عن الرهبان أنفسهم، فهناك معلومات هنا [في الكتاب المذكور] عن مكانة الرهبان في كلٍ من الكنيسة والمجتمع المصري في القرن الرابع. هناك ـ أولاً ـ تعليقات من هم من خارج [الرهبان] عن الدور الذي استنبطوه للرهبان، وثانيًا توجد مؤشرات عن الطرق التي أثرت بها توترات المجتمع على مشغولية الرهبان أنفسهم [أي انشغالهم بمشاكل المجتمع].

رأي الذين هم من خارج[٣]

لمعرفة رأي الآخرين [العلمانيين والزائرين] عن الرهبان، تتحدَّث مقدمة [الكتاب] باستفاضة عن الرهبان بوصفهم "خدّام الله الحقيقيين ... بينما يسكنون على الأرض ... يعيشون كمواطنين سمائيين حقيقيين"؛ ولاحقًا يقول الكاتب: "لا توجد مدينة أو قرية في مصر *Egypt* أو الصعيد *Thebaid* غير محاطة بالمناسك كأنها أسوار، والناس يعوّلون على صلوات هؤلاء الرهبان كما على الله ذاته"؛ ويضيف أخيرًا: "إنه من الواضح لكل من يسكن هناك [يقصد المصريين] أنه بواسطتهم [أي الرهبان] حُفظ العالم، وبواسطتهم أيضًا حُفظت الحياة الإنسانية وكرمها الله". لقد تم تقديم الرهبان على أنهم المدافعون عن، بل وحرّاس، سلامة العالم، المراقبون الحدود باستمرار، مسلحون ضد الشياطين لمنفعة البشرية. هذه الصورة مألوفة في العصور الوسطى؛ فأقسام المجتمع الثلاثة ـ المقاتلون، والعاملون، والمصلّون ـ كلٌ يعمل بطرقه المختلفة لأجل حياة المملكة [الأرضية]. وقد كانت الصلاة عملاً عظيمًا يُنجَز من خلال فضائل الجسد؛ لقد كان الرهبان مثل أشجار تنقي الأجواء المحيطة بوجودهم.

---

[٣] العناوين الجانبية من وضع المترجم.

هذه جملة صريحة عن الفكرة الرئيسية التي كثيرًا ما تُناقش اليوم، [وهي] مكانة القديس في المجتمع[٤]. لقد كان يُقال عن الراهب ـ وخصوصًا المتوحد ـ في القرن الرابع بمصر، إنه بؤرة القوة الروحية لجيرانه، فكون الراهب [يحيا] خارج المجتمع، منفصلاً عن تحزبّاته الصغيرة وطموحاته، [هذا] جعله مركز جذب، صانع سلام بين البشر، وكان أيضًا صديقًا لله، إنسانًا مؤثرًا في البلاط السماوي. لقد كان [الراهب] ـ على أقل تقدير ـ حظًا سعيدًا لأولئك المحظوظين بأن يجاوروه. لكنّ هذا كان رأي من هم من الخارج [العلمانيين] عن الرهبان، وليس بالمرّة رأي الراهب في نفسه. فبين الحين والآخر، في أثناء القتال ضد الشياطين، سُمح للراهب أن يردد مثل هذه الأفكار؛ فبلاديوس، على سبيل المثال، حين أصبح قلقًا، وملّ الحياة في البريّة، قال له [ق.] مكاريوس: "قل لهم [أي الشياطين] إنني لأجل المسيح أحرس الأسوار"[٥]. ولكنّ هذا كان تعليقًا استثنائيًا في موقف محدد. إن الراهب يرى نفسه، في هذا النص كما في نصوص أخرى، في المقام الأول إنسانًا فقيرًا، خاطئًا، إنسانًا يمكن تعريفه من خلال احتياجه الخاص، لا من خلال دفاعه عن الآخرين. وبالحقيقة، فإنه في هذا التعريف [تعريف الراهب لنفسه]، يجد الادعاء بـ "حفظ الأسوار" صحته؛ فالراهب "متورط مع البشر" بأعمق ما يكون، حيث بالتوبة والصلاة وإنكار الذات، يتعلم أن يقف في محضر الله في "الموت حبًّا طوال الحياة" *life-time's death in love*، فجزءٌ من البشرية الممزقة والمنكسرة وُضِعَ أمام مخلص [البشرية]. حينما يعرّف الراهب نفسه، فهو [يعرّف نفسه] على أنه خاطئ، إنسان ضعيف، ليس قويًّا، ولا بكونه "إنسانًا حُفظ به العالم".

يجب وضع هذا في الاعتبار عند مناقشة ودراسة رأي الناس في الرهبان، وهناك جانبان من هذا النوع [رأي الناس] يشكلان محتوى فصول الكتاب: وجهة نظر المجتمع في الرهبان، وانطباع الزوار من فلسطين. يجب التأكيد على أن هذا

[4] See for example, Peter Brown, 'The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity', *Journal of Roman Studies* 61 (1971) pp. 80-101.
[5] *Lausiac History*, c. XVIII.

رأي خارجي، وهو مختلف تمامًا عن أهداف ومُثُل الرهبان الخاصة: ففكرة أن الراهب هو من بواسطته "حُفظت الحياة الإنسانية، وكرّمها الله"، هي رأي خارجي، ويجب أن تبقى كذلك.

الراهب ومشاركة المحتاجين

أولاً وقبل كل شيء، يوجد في كتاب "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*، بجانب تعريف الراهب بشكل عام كبطل المجتمع في الحرب الروحية، توجد إشارات عديدة عن المكانة العملية جدًا التي شغلها الراهب في القرن الرابع في مصر. فبينما كانت أحد أغراض الرهبان هو الانسحاب الجذري من المجتمع واهتماماته، فإنهم حتمًا خلقوا بؤرة تركيز جديدة، فإنهم جعلوا البرّية تزهر بشكل مرئي كما بالمعنى الروحي. هناك قصص في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* عن مشروعات زراعية مزدهرة ـ حدائق [مزروعة] خضروات لأجل استخدام الرهبان وزائريهم، نباتات خضراء تنمو حيث لم توجد قبلاً، زراعة وفلاحة في تربة خصبة، وبساتين من الأشجار. الخضروات كانت تؤخذ من حديقة [الراهب] كوبروس *Copres* لتُطهى للزائرين، وكانت [الخضروات] محل حسد جيرانه. سرابيون [أيضًا] نظّم تجارة منتظمة بين الفيوم ومدينة الإسكندرية على نطاق واسع، وكان يرسل القمح والثياب إلى فقراء الإسكندرية؛ والسبب في هذا أنه لم يكن هناك فقراء بقرب الأديرة:

> "الإخوة يرسلون من عملهم [ما يوازي] حمولة سفينة كاملة من القمح والثياب لأجل الفقراء في الإسكندرية، لأنه من النادر أن يوجد بالقرب من الأديرة من يحيا في احتياج"

ربما كان [ق.] أبوللو معروفًا بتقشفه الشخصي وأصوامه، ولكن حينما حدثت مجاعة في الصعيد، افترض الناس أن مجمع رهبان [ق.] أبوللو ربما يكون لديهم طعام، وحقيقة، يبدو أنه كانت لديهم العديد من سلال الخبز تشاركوا فيها مع [أهالي] المقاطعة المحيطة [بهم]. لقد كان الرهبان بطبعهم

مقتصدين، كادحين، لهم ضمير حيّ؛ لقد كان هذا هو الجانب الآخر لفقرهم الشديد ونسكهم.

الراهب والمال

إن فقر الرهبان وفّر ـ علاوة على ذلك ـ سبلاً للتواصل، [إذ] مكّن جيرانهم من الوصول إليهم. إن التناقض بين الأسمال والثروات كان له أثره الخاص. هناك قصة في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* عن شيخين اسمهما [ق.] مكاريوس، ذهبا في يوم ليعبرا النيل؛ ولما ركبا العبّارة وجدا عليها اثنين من المحامين [الخطباء] *tribunes*:

> "كانت لهما عربة مغطاة بكاملها بالبرونز، وخيل بلُجُم ذهبية، وصحبة من العسكر، وخدم لابسون ياقات وأطواقًا ذهبية. فلما رأى المحاميان الراهبيْن جالسيْن في الزاوية، لابسيْن أسمالاً بالية، باركا بساطة حياتهما. أحد المحاميّن قال لهما: 'مباركان (مكاريي) أنتما، يا من هزأتما بالعالم'. فقال له [ق.] مكاريوس الإسكندري: 'نحن قد هزأنا بالعالم، ولكنّ العالم هزأ بك. يجب أن تعلم أنك لم تقل هذا من ذاتك وحدك، ولكن بوحي نبويّ، لأن اسمينا كلينا [ق.] مكاريوس'. وإذ نُخس المحامي بهذه الملاحظة، مضى إلى بيته، وخلع زيّه، وبعدما تصدّق بسخاء، اختار أن يحيا راهبًا."

هذه القصة تظهر لنا جانبًا آخر من مكانة الرهبان في المجتمع، وهي أن المحامي كان يملك ثروة ليوزعها قبل أن يصير راهبًا. ومرارًا وتكرارًا هناك قصص عن متحولين [للرهبنة] كانت لهم ثروات فرقوها، أو حملوها معهم للبريّة. فهناك [قصة] ميلانية التي ملكت ثلاثمائة قطعة من الفضة ازدراها

بامبو[٦] [بَمفو]، وفي "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*، قابل [ق.] بفنوتيوس تاجرًا للفول والعدس قد ترهّب، وكان حاملاً معه كمية ضخمة من الذهب، [إذ يقول الكاتب]:

> "رأى [ق. بفنوتيوس] تاجرًا من الإسكندرية، تقيًّا ومحبًّا للمسيح، كان يتعامل في تجارة تساوي عشرين ألف قطعة ذهبية. وكان يسافر مع مجرى النهر من الصعيد الأعلى بمائة سفينة، موِّزعًا كل ما بحوزته، وكل تجارته، على الفقراء والرهبان.[٧]"

وبجانب الهدايا التي من هذا النوع، فهناك قصص متكررة عن هبات من الطعام للرهبان، سواءً كان عنبًا أو خبزًا أو فاكهة.

الراهب والمجتمع الزراعي

وأكثر من هذا، فخلال "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* يظهر النيل كمصدر للثروة. هناك قصص عن وثنيين يحملون أصنامهم ويغمرونها في النيل ليضمنوا الفيضان في وقته الصحيح. وبالتوازي مع هذا، هناك قصص عن رهبان أُعتُبروا مسئولين عن فيضان النيل [بواسطة] صلواتهم:

> "يوحنا الأسيوطي، كان مواطنوه يعتبرونه إنسانًا له علم مسبق [بالمستقبل]، ويكشف ما هو مخبّأ في المستقبل؛ لقد

---

[٦] التاريخ اللوزي، فصل ١٠/ ٣ و ٤: "فقلتُ له: 'لكي تعلم أيها المعلّم أن ثمة هنا ثلاثمائة ليرة'. فأجابني دون أن يرفع رأسه: 'يا ابنتي، إن من حملتِه لا حاجة به إلى الوزن، والذي يزن الجبال يعرف جيدًا بالأكثر مقدار هذا المال. بالحقيقة، إن كان لي أنا ما أعطيتني فقد أحسنتِ بقول ذلك لي، وأما إن كان لله الذي لم يحتقر فلسي الأرملة فاصمتي'." (بلاديوس، التاريخ اللوزي، نقله إلى العربية الأب جوزيف كميل جبارة، أقدم النصوص المسيحية، سلسلة النصوص النسكية ٣، منشورات المكتبة البولسية ٢٠٠٧).

[٧] *السوليدوس* الروماني Solidus، *كان يُسمى في مصر نوميزما* Nomisma، *وهو عبارة عن عملة ذهبية صنعها قسطنطين، بعد إصلاح العملة في عهد دقلديانوس، وقد حلّت محل الدرهم كوحدة قياسية للمحاسبات المصرية. راجع* A. H. M. Jones, *The Later Roman Empire 284-602*, Oxford, 1973, vol. I, pp. 107-8.

كان يخبر كل إنسان بما فعله في الخفاء، وتنبأ بصعود وهبوط النيل، وغلّة محاصيل العام"

ويبدو أن كوبروس كان مشاركًا في تحسين الزراعة في مصر [الإصلاح الزراعي]. فبينما كان الزائرون يتحدثون إليه، أتى فلاّح بمجرفة مملوءة رملاً. وكان شرح كوبروس كالتالي:

"كانت الأرض المتاخمة لنا بورًا، ونادرًا ما كان الفلاحون الذين يملكونها يجنون عائدًا ضعف البذور التي زرعوها ... فقلتُ لهم: 'إذا كان لكم إيمان بالله، فحتى رمال هذه الصحراء ستنتج لكم ثمرًا'. وبدون أية لحظة من التردد، ملأوا ثنيات أقمصتهم بالرمال التي وطئناها، وأحضروها إليّ، وسألوا أن أباركها ... وبذروا الرمال مع الذُرة في حقولهم، وللحال أخصبت الأرض جدًا، أكثر من أي موضع آخر في مصر. وكنتيجة [لهذا]، أصبحت عادتهم أن يفعلوا هذا، وفي كل عام يزعجوننا لأجل الرمال".

ويضيف كاتب هذه القصة أن كوبروس نفسه استغل هذا النظام في تخصيب [التربة]:

"أخذنا إلى حديقته الخاصة، وأرانا نخلاً، وأشجار فاكهة أخرى زرعها بنفسه في البريّة، هذا كان قد استوحاه من إيمان أولئك الفلاحين الذين قال لهم إنه حتى البريّة يمكنها أن تثمر لأولئك الذين لهم إيمان بالله، وقال: 'فحينما رأيتُ أنهم زرعوا الرمال، وأنتجت أرضهم ثمرًا، حاولت أن أفعل نفس الشيء، ونجحتُ'."

إذا اعتبرنا هذا النظام على أنه نقل تربة خصبة إلى أخرى، ففي هذا لمحة لإصلاح زراعي من مرتبة ممتازة.

الراهب والضرائب

إن وجود الذهب في مصر[٨]، يرد في أماكن كثيرة خلال هذه الرواية، فبجانب المحاميين، واللُجُم الذهبية، والأطواق الذهبية في قصة [ق.] مكاريوس، فإن [ق.] بفنوتيوس يذكر لصًا كان يملك ثلاثمائة عملة ذهبية مخزونة في مغارته، دفع منها متأخرات الضرائب لامرأة قابلها في البريّة، [أيضًا] التاجر الذي كان يملك مائة سفينة وعشرين ألف عملة ذهبية، باتِرموثيوس *Patermuthius* [درمتاوس][٩] أراه الشيطان مرةً "خزائن كنوز فرعون، مملوءة ذهبًا نقيًا"[١٠]، واشتبه اللصوص في ثيون *Theon* أنه يخبّئ ذهبًا في قلايته[١١]. إذًا كان هناك ذهب في مصر، ولكن الجانب الآخر من ثراء دلتا النيل هذا، نجده في الإشارات للضرائب والتي تتردد على طول نص "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum*. إن أول إشارة للرهبان في قانون روماني تختص بمحاولات بعض الرجال الهرب من واجباتهم الضريبية العامة والخدمة العسكرية بالذهاب والادعاء بأنهم رهبان؛ هؤلاء كانوا يُجبرون على العودة، أو تُصادر ممتلكاتهم إذا لم يكونوا بالحقيقة رهبانًا. قيل أن هذه الفقرة من

---

[٨] كانت مصر أغنى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية، وهناك العديد من الأدلة الباقية عن وجود الذهب [في مصر]؛ وقد كان يتم تحصيله من الترسيبات بطول النيل، ولاحقًا من الحفر في صخور الكوارتز بواسطة المساجين أو الجنود. Cf. R. H. Greaves and O. H. Little, 'Gold Resources of Egypt', *Report of the XV^th^ International Geological Congress*, 1929, 123-7.

[٩] راهب من البهنسا، تذكار نياحته ٣ كيهك. Patrologia Orientalis, vol. 3 (1909), p. 396 (المترجم).

[١٠] مجموعات المتاحف لثروات الأهرام الملكية توضح هذا؛ cf. Cyril Aldred, *Jewels of the Pharaohs*. London 1972.

[١١] Cf. HM X، لقد كان باترموثيوس اللص يخطط لسرقة منزل متوحدة، متخيلاً أن غرفتها الداخلية قد تحوي ثروة. هذا الشك عادة ما كان يُلصق بالمتوحدين؛ كمثال من العصر الوسيط انظر John of Ford, *Life of Wulfric of Haselbry*, ed. Maurice Bell [Somerset Record Society 47, 1932] c. 49, p. 115 and c. 43, p. 103.

التشريع قد طُبِّقت خصيصًا على مصر[١٢]، فقد كانت أرضًا غنية، وافرة الضرائب سواءً في المال أو القمح.

إن التفكك الاجتماعي الذي نتج عن التهرُّب من الضرائب يظهر بوضوح في "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* في قصة [ق.] بفنوتيوس الذي التقى لصًا في البرية، كان قد ساعد امرأة هائمة على وجهها [في البريّة] بصعوبة بالغة، فقط بسبب حِمل الضرائب، [هذه] قالت له [اللص]:

> "كثيرًا ما جُلد زوجي خلال العامين الماضيين بسبب متأخرات الضرائب، والتي تراكمت حتى [بلغت] ثلاثمائة عملة ذهبية، لقد سُجن، وبيع أبنائي الثلاثة المحبوبين عبيدًا، أما أنا، فقد أصبحتُ طريدة، أنتقل من مكان لآخر، والآن أنا أجول في البريّة ولكن كثيرًا ما أُضبط وأُجلد، ولي الآن ثلاثة أيام في البريّة دون أن آكل شيئًا."

الراهب والخدمة العسكرية

وبجانب الفرار من ثقل الضرائب، كان هناك فرارٌ للبريّة بسبب ثقل مماثل [وهو] الخدمة العسكرية. لقد جثم التجنيد على مصر نتيجة تفتُّت حدود الإمبراطورية والاحتياج إلى قوات إضافية. فبالنسبة للمُزارع، أن يترك ممتلكاته، والتي جعلها ـ في تحدٍّ لتقلّبات فيضان النيل، ومزاحمة الجيران ـ اهتمامًا حياتيًّا، كان سببًا للغضب والاستياء؛ وكانوا يتجنبونه كلما أمكن، ولكن بعضًا من أولئك الذين ادّعوا أنهم رهبان كانوا في حقيقتهم معترضين، معدومي الضمير. من ناحية أخرى، كان الجيش حاضرًا باستمرار أمام الرهبان؛ فبعضهم ـ مثل باخوميوس ـ كانوا مجندين. سمع [ق.] أبوللو أن راهبًا تجند في زمن يوليانوس [الجاحد]، فذهب مع بعض رهبانه ليشجع الرجل على الاحتمال؛ فقام قائد الحامية الماكر بالتحفظ على المجموعة كلها ـ ولو

---

[١٢] *Theodosian Code XII,18,1 [AD 368] and XII,1,63 [AD 373]*. لقد كانت الحاجة إلى مجندين على الحدود متزايدة. باخوميوس كان مجندًا في حرب مكسيميانوس الأخيرة ضد ليسينيوس عام ٣١٣م Cf. Sancti Pachomii, *Vita Graeca A*, c. 4.

بشكل مؤقت ـ كمجندين إجباريًّا، "ظانًّا بأنهم يصلحون مجندين للحملة المقبلة". الراهب والشهيد [ق.] أبوللونيوس أُسلم لحراسة عسكرية عندما أُخذ للأسكندرية للمحاكمة. ولكن صور الخدمة العسكرية كانت محفورة بشكل كبير في اللاوعي الخاص بأولئك الرجال [الرهبان]، حتى أنها لوّنت أحلامهم. أور [هور ـ حور] أخبر زائريه عن ناسك [متوحد]، وأدركوا أنه كان يعني نفسه، رأى في حلم الشياطين كأنهم جنود تحاول إغوائه، إذ رأى:

> "قوات من الملائكة ومركبة نارية وصحبة كبيرة من الحراس، وكأن ملكًا [إمبراطور] يقوم بزيارة؛ وقال الملك: 'أيها الرجل الصالح، لقد نجحتَ في كل فضيلة، اسجد أمامي وأنا سأرفعك مثل إيليا'."

ولكن الراهب كان قد تتلمذ على فضيلة البريّة الأساسية، [أي] الواقعية التي هي الاتضاع، فقال: "إن المسيح هو ملكي الذي أعبده بلا انقطاع؛ أنت لستَ ملكي" فاختفت الشياطين. وفي حُلم مماثل، باتِرموثيوس خلُص إلى نتائج مختلفة من نفس المناظر:

> "لقد رأى شخصًا مثل ملك قائلاً له: 'لا تسهر متأملاً في القبور وهذه الذنوب الصغيرة، في المقابل، إن أردتَ أن تغير طريقة حياتك لتكون [حياة] في الفضيلة، وأن تتجند مع الملائكة، ستنال القدرة على هذا مني'."

وكما يذكر الكاتب في المقدمة، أن الرهبان كانوا مسجّلين في جيش الملك [المسيح]؛ كانوا يسهرون بانتباه "مثل جيش يتوقع [مجيء] ملكه".

الراهب والوثنية

إن الأثر الذي أحدثه نظاما الضرائب والتجنيد الرومانييْن في عقول الرهبان كان عظيمًا؛ ولكن الأقرب إلى منازلهم كانت الوثنية في القرى. لقد كانت المسيحية في مصر شيئًا جديدًا، وكان كرسي الإسكندرية مركزًا مسيحيًّا مزدهرًا بحلول القرن الثالث [الميلادي]، ولكن معابد الآلهة المصرية القديمة

ظلت [موجودة] بطول النيل، ويمتلئ "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* بإشارات للوثنيين المحيطين بالرهبان. وحتى في الإسكندرية، كان الوضع أبعد ما يكون عن الأمان في ٣٩١م، فثلاث سنوات قبل مجيء [الزوار] السبعة إلى مصر، بلغت المسألة مداها: فقد قام الوثنيون بأعمال شغب، وسجنوا المسيحيين، وتحصنوا في هيكل سيرابيس، حتى تم هدمه [ومساواته] بالأرض بناءً على أمر الإمبراطور، ودُمِّرت صورة سيرابيس. [...]

وعلى المستوى المحلي، فإن كلاً من يوحنا الأسيوطي وكوبروس تعاملا مع الوثنيين ومشاريعهم الزراعية، بينما تحدث [ق.] أبوللو لزائريه السبعة باستفاضة عن الوثنية في مصر[١٣]، لقد شرح تعدد الآلهة بطريقة حاذقة، مقترحًا أنه ربما كانت هناك أسباب عملية أدّت إلى تأليه الطبيعة:

> "لقد عبدوا الثور ... لأنه بواسطة هذا الحيوان تمموا زراعاتهم وأنتجوا طعامهم، وعبدوا مياه النيل لأنها تروي الريف كله ..."

إن عالِم الإنسانيات *anthropologist* المُعاصِر ليقول تقريبًا نفس الرأي. ويقترح [ق.] أبوللو ببراعة كبيرة أن الحيوانات عُبدت لأن المصريين إذ كانوا يعتنون بحيواناتهم، انشغلوا عن اللحاق بفرعون في مطاردته للإسرائيليين، وهكذا نجوا من الغرق، وفي المقابل أصبحوا مُمتنّين لما أعاقهم[١٤].

ويبدو أن كاتب الرواية شخصيًا كان مفتونًا بالوثنيين، فقد تحدث مع [ق.] أبوللو على انفراد بخصوص معتقداتهم، ومضى وحيدًا لزيارة الأهرام عندما وصلوا للقاهرة [حسب الموضع الحالي]، وهو يذكر أيضًا بعض القصص عن معاملات الشيخ [ق.] أبوللو] مع الوثنيين حيث اصطدمت الثقافتان. لقد كان

---

[١٣] تم إبطال عبادة الأوثان بالقانون، *Theodosian Code XVI,10,11*؛ ولكن تطبيق هذا القانون كان يختلف تبعًا للظروف المحلية.

[١٤] كثيرًا ما يُشار لعبادة المصريين الوثنيين للحيوانات في النصوص المسيحية المبكرة. [...]

للاحتفالات الضرورية لفيضان النيل[١٥] أهمية مركزية في مصر، وقيل أن يوحنا الأسيوطي طُلب منه مباركة المياه بدلاً من الكاهن الوثني. [ق.] أبوللو قابل موكبًا للوثنيين حاملين تمثالاً ليغمسوه في مياه النيل، وسبّب فوضى بينهم وفي القرى المحيطة حيث أوقف الموكب بصلواته. لقد تحول أولئك الوثنيون [للمسيحية] بعد ذلك، ولكن هذا لم ينهِ تعاملات [ق.] أبوللو مع [الوثنيين] الآخرين: فقد طُلب منه أن يصنع سلامًا [صُلحًا] في قرية وثنية، وأمضى وقتًا طويلاً في وعظ زعيم عصابة هناك، والذي أصبح مسيحيًّا وترهّب. بطلٌ آخر مماثل لم يكن موفقًا [مثل ق. أبوللو]، وفي نزاع على قطعة أرض مع المسيحيين، قُتل وحده، وبهذه الطريقة أيّد مواطنيه في احترام المسيحيين وقوتهم. [هناك] قصة رويت عن [ق.] مكاريوس تنسب مرضًا ألمّ بفتاة لأعمال السحر والتي أُبطلت بصلوات القديس. إن الوثنية في القرى المصرية أحاطت بالرهبان من كل جهة؛ وجزء من رفضهم [لحياة] القرى، هو رفضهم للوثنية المتغلغلة في الحياة، و[في المقابل] فإن اهتداء الوثنيين، إذا لم يكن من جُل اهتمامات [الرهبان]، فهو على الأقل، شيءٌ يفعلونه إن استطاعوا. لقد كانت هياكل الأوثان موجودة دائمًا، واستخدمها الرهبان كأديرة في البهنسا *Oxyrhynchus*. إن الأوثان كانت ماضيهم القريب، الذي [يجب أن] يُنبذ ويُطرح وراء ظهورهم، لا أن يُكتشف أو يُبحث. ذات مرة بات [ق.] مكاريوس في هيكل مهجور للأوثان في ترنوج *Terenuthis* وحلم بالشياطين يسكنون المومياوات التي وجدها هناك؛ ولكنه هو نفسه [ق.] مكاريوس الذي هدى كاهنًا وثنيًّا [للمسيحية] بأن رأي فيه إنسانًا يجب أن يُعامل باعتبار لا بكونه عدوًّا يُهاجَم[١٦].

---

[١٥] موسم فيضيان النيل كان من أغسطس وحتى نهاية نوفمبر؛ وكانت المحاصيل تنمو بكثرة في الترسيبات الطمييية التي تخلفها مياه [الفيضان] بشرط أن تستطيع التعايش في البيئة المِلحية؛ *cf. W. Willcocks, Egyptian Irrigation, London 1889, p. 20.*

[16] *Sayings of the Desert Fathers*, Macarius the Great 39.

الخاتمة

لقد كان للرهبان مكانة متعددة الجوانب في المجتمع المصري، و"تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* يزودنا بلمحات عن هؤلاء الرجال، ومواقفهم بين الوثنيين، الفلاحين، الرومان، التجار، الجنود، الموظفين المدنيين وعائلاتهم؛ بين المدن والقرى، مغلفة [مواقفهم] بالحياة المتنوعة والمفعمة بالحيوية في دلتا النيل. إن هواء بلدٍ آخر، [بلد] الدهور التي بلا نهاية، الذي يحيط بالرهبان في أدبهم، له في الحقيقة بعض الأسس؛ فإن طموحاتهم كانت موجهة نحو الصمت المطلق، والسكون العظيم، في صحارى العالم اللامتناهية، ولكنهم مع ذلك كانوا موضوعين في المجتمع الذي أتوا منه، وكان هذا المجتمع هو ما شكّل أفكارهم وتطلعاتهم بل وحتي غواياتهم، المجتمع الذي جعل من الرهبان مُحكِّمين، ولاحقًا، أبطال أرثوذكسيته.